

على هامش ذكرى المعري

«داعى الدعوة» مناظر المعري

للدكتور محمد كامل حسين

— ٤ —

لخصت في مقالتي السابقة شيئاً من حياة المؤيد داعى الدعوة ، وتحدثت عن شيء من نشاطه في الحياة السياسية ، ولم أشأ أن أدخل في تفاصيل لا تتحملها الصحف السيارة ، والآن أتحدث عن أثر المؤيد في الحياة العلمية والأدبية . فقد كان المؤيد عظيم الأثر في معاصريه ، واستطاع أن يسخرهم بفصاحته وببهرهم بقوة حججه فاقادله خلق كثير ، واستطاع كذلك أن يجعل من تلاميذه مدرسة لها طابعه ، تتحدث بأرائه وتبشر بآماله ، كما وضع عدة كتب لا تزال إلى الآن من أهمات الكتب التي لا يقر بها إلا نميوخ الدعوة الطيبية في الهند واليمن ، (أى طائفة

ثم ساءلها أحمل عني بمض ما ذقت في هواها فتونا فنتت طرفها وقالت أما نبرح يا ظالمى نسي الظنوننا وأنا لا أشيم في قلبك السا در نوراً ولا أحس يقيننا كنا نسي الظنون وما أحسب إلا أن الأمانة فينا ! وكما يتردد ذكر الشك في شعر رامي الجديد تتردد الشكوى من كثرة المحبين الذين تنهاوى فراشات قلوبهم في نار حبيبته المقدسة :

يا من أخذت فؤادى أخذ العدو الحبيب
قلبي لديك فقل لي ما حاله في القلوب
وما أعذب مطلع قصيدته «هوى الغانيات»
كيف مررت على هواك القلوب فتجبرت من يكون الحبيب ؟
ومن قصيدته «بين الشك واليقين» :

وأطافت بك القلوب وقلبي ضاع في غمرها ولما يضعك
خبريني أى القلوب تناسجين فقد ضمت في غيابة شك
ثم تكثر في شعر رامي الجديد تلك المقطوعات الرقيقة التي

الهيبة) ، وقد سرد عبد الله بن المجدوع في رسائله أسماء الكتب التي وضعها المؤيد في الدين ، وهي تبلغ نحو ثلاثة عشر كتاباً ، منها كتاب واحد بالفارسية هو كتاب أساس التأويل ، وقال إن المؤيد ترجم هذا الكتاب عن العربية عن كتاب «أساس التأويل» لأبي حنيفة النعمان بن حيون المغربي . وقد رلى أن أطلع على هذا الكتاب بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن ؛ فإذا هو يبحث في تأويل قصص الأنبياء بمد أن قدم في عدة صفحات قليلة بوجوب تأويل القرآن الكريم تأويلاً باطنياً ، ووجوب معرفة الظاهر والباطن

ولعل أكبر أثر تركه المؤيد هو كتاب «المجالس المؤيدية» ، وهو مجموعة محاضراته التي ألقاها في مجالس الدعوة ، وتجمع كل مذهب الفاطميين . فلم يترك المؤيد شيئاً من مذهبه دون الحديث عنه في هذه المحاضرات التي بلغت الثمانمائة محاضرة ، ولا أدري تماماً متى جمعت هذه المحاضرات ومن الذى أطلق عليها هذا الاسم ، ولكن الذى لا شك فيه أن الداعى اليمنى حاتم بن إبراهيم المتوفى سنة ٥٩٩ رتب هذه المحاضرات حسب

لا نستطيع أن نسميها إلا «خطابات شعرية» كان يرسل بها إلى حبيبته الجديد ، يملأها بالشكوى والشك والحزن وهو بصرح في معظم هذه (الخطابات المنظومة) بأن حبيبته هذا ذو صرت جنون حلو :

عشتك للصوت الحنون وللشجى

وما كنت أدري ما يجزى هواك

غناء كشدو الطير في رونق الضحى

ومعنى تناخى في سماء منداك

وإذا سئل رامي عن يكون هذا الحبيب أجاب :

أرادوني على أنى أبوح وهل بتكلم القلب الجريح
إلى أن يقول :

وتزدحم القلوب على هواها فتتكرنى ولى كبد قريح ؟

وبعد ... فن الفضول في تأريخ شعرائنا أن نمدد هذا الحد .

من الله على رامي بنعمة الهدوء في عش حياته المائلى . زوجاً كريماً ووالداً برّاً رحيماً .
دمينى فضيلة

ونشرها باسم « جامع الحقائق » ، فأدى بذلك خدمة جليلة لمن يبحث في المجالس المؤيدية

قسم حاتم بن إبراهيم المجالس المؤيدية إلى ثمانية عشر باباً ، جمع في الباب الأول ما ذكره المؤيد عن التوحيد ، وفي الباب الثاني ما اختص بالإبداع والمبدع الأول ، وفي الثالث ما ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الرابع عن النبي (ص) وعلى بن أبي طالب ، وأفرد الباب الخامس لملي بن أبي طالب ، وجمع في الباب السادس ما قيل في إثبات الإمامة في ولد علي ، وأن الإمامة تنتقل من والد إلى مولود لا تنقطع إلى يوم القيامة ، وفي الباب السابع حديث عن الأشباح الروحانية وفضلهم ، وفي الثامن ما قيل في السادة والتأييد والوحي المتصل بالأنبياء ، وحديث عن الأنبياء والأوصياء ، وفي الباب التاسع والعاشر وجوب أخذ العهد على المستجيبين للدعوة ، ووجوب التأويل وصحته ، وفي الباب الحادي عشر تجدرد المؤيد على غلاة الشيعة وعلى القائلين بالتناسخ ، وفي الباب الثاني عشر رد المؤيد على الفلاسفة والمعتلة والمنجمين ، وفي الباب الثالث عشر رسائل المؤيد إلى أبي الملاء المعري ، ورد المؤيد على المعتزلة وعلماء أهل السنة واليهود ورد على ابن الراوندي صاحب كتاب الزمردة الذي يحتاج فيه على الرسل ، ويحاول أن يبرهن على إبطال الرسالة ، وفي الباب الرابع عشر يتحدث المؤيد عن أصداد الأنبياء والأوصياء منذ عهد آدم ، وفي الباب الخامس عشر جمع بعض مناجاة المؤيد وخطبه ومواظله ، وجمع في الباب السادس عشر في ذكر فضل المهدي المنتظر ، أو بحسب اصطلاحهم « قائم القيامة » والباب السابع عشر عن المعاد والثواب وذكر أهل العذاب ، وختم كتابه بالباب الثامن عشر وهو خاص بأهل العذاب

هذه هي الموضوعات التي تحدث عنها المؤيد في مجالسه ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن المؤيد كان واسع الاطلاع عالماً بمذهبه وآراء جميع الفرق الإسلامية الأخرى ، وبما نقل إلى العربية من مذاهب الفلاسفة الأقدمين . والمؤيد في كثير من مجالسه كان يأخذ آية من القرآن الكريم ، أو قولاً مأثوراً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عن أحد أئمة الفاطميين

ويشرحه شرحاً يتفق مع ما كان يدعو إليه . فهي مجالس تأويل إن صح أن نسميها بهذا الاسم ، وهنا تتجلى لنا شخصية المؤيد ، إذ أن داعي الدعاة الأكبر أو الحجة هو صاحب التأويل في عصره ، ولهذا نرى شيئاً من الاختلاف بين الدعاة في تأويل بعض الآيات القرآنية الكريمة . فالتأويل شخصي يختلف باختلاف الدعاة وباختلاف المصور ، فتأويل النعمان بن حيون يختلف عن تأويل جعفر بن منصور البجلي صاحب كتاب الكشف ، وكتاب سرائر النطقاء ، وكتاب أسرار النطقاء ، وهما يختلفان عن تأويل المؤيد في مجالسه . وهم جميعاً يختلفون عن تأويل دعاة اليمن ، وهذا عجيب من قوم يدعون أن التأويل من عند الله سبحانه وتعالى ! كان المؤيد يبدأ مجالسه بمقدمة بحمد فيها الله ويشي بالصلاة على النبي وعلى وصيه ، ثم يخاطب السامعين بقوله : « معشر المؤمنين » ... معلوم أن ... كما كان يختم كل مجلس بالدعاء لسامعيه ، ثم يعقبها بحمد الله والصلاة على النبي والوصي والأئمة . وكان إذا أراد التحدث عن نفسه في مجالسه يقول : وقع في أيدي أحد دعائنا ... أو « سئل العالم » « قال العالم » ، لأنه كان يستر نفسه موهاً جمهور المستمعين أن هذه المجالس إنما هي صادرة عن الإمام نفسه

وهاكم نص المجلس الثاني من المجالس المؤيدية في موضوع الشرع والعقل بعد حذف المقدمة لطولها « معلوم أن المسلمين يشهدون بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام ضرورة من حيث أن القرآن الكريم مشحون بذكرهما وقصصهما . وم « المسلمون » خصوم أمتيها اللتين هما اليهود والنصارى ، وشهادة الخصم لا يحتاج معها إلى بينة ، وهم ينكرون النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بينة للمسلمين غير القرآن الذي لا يقبلونه ويقولون ما هو بلفظنا ولا يلزمنا فيه حكم إعجاز ، والأخبار التي يأتونها في إعجاز النبي « ص » هم يردونها ولا يقبلونها . فكيف الحيلة في إثبات نبوته عليهم ، من حيث لا يستطيعون ردها !

الناظر من المسلمين إذا ناظرهم قال إن كان موسى الذي دل عليه نبينا (ص) ونطق به القرآن الذي هو كتابه ؛ فقد لزمتمكم نبوة صاحبنا كما لزمنا نبوة صاحبكم ، وإلا لم نعرف صاحبكم كما

لا تعرفون صاحبنا . وعنده أنه دقيق في المناظرة وأحسن وجوه ، ولم يعلم أنه قابل ككفراً بكفر ؛ فكان كما قال الله تعالى : « ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء » وإعنا الطريق عليهم أن يسألوا عن برهان سبقهم وأحدهم وأوضاع دينهم من حيث العقل فيوافقوا على كون اليهودية والنصرانية عندهم لفظاً بلا معنى وأن معاني ذلك محصورة في دين الإسلام الذي أتى به محمد (ص) فيتمين على من طلب النجاة منهم ؛ فلم يعل ميل الهوى الإيمان به . وقول آخر : معلوم أن النبي « ص » مبعوث إلى الكافة كما قال الله تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » وأن معجزة القرآن الذي هو كلام عربي يختص بلسان العرب ، فإنه يستحيل أن يكلف الروى والهندي والتركي أن يقبلوا القرآن معجزاً ويؤمنوا به وعن أتى به ، فما حجة نبوة محمد « ص » على هذه الأمم كلها إلا أن يقام عليهم من صورهم وتراكيهم حجج عقلية هي موجودة في معاني القرآن دون ظاهر لفظه عند الراستخين في العلم يقوم منها برهان نبوة النبي « ص » وإلا فلا برهان . وقول آخر مختصر شاف : أن العقل صنع الله سبحانه في باطن الإنسان يرى به مبصرات الآخرة ككون العين صنعه في ظاهره يرى بها مبصرات الدنيا ، وقد يشرك الحيوان الإنسان في العين ، ولا يشركه في العقل ؛ فما يقال فيمن أعمى عينه بيده فحجب عنها ضياء العالم ونوره ؟ وهل يحكم على من فعل ذلك بعين يشركه الحيوان فيها إلا بضعف الرأي وسوء الاختيار ؟ أفلا يحكم على من أعمى العين المطموح بها إلى دار القرار بالشهوة والخسار وحلول جهنم دار البوار نعوذ بالله من ذلك . وجملة ما يقال في قضية قولهم إن الشرع غير موضوع على العقل إن ولى أفاقه من قصر أن يكون يحتاج البرهان فيها طائر فرأى أنه إن أثبت لكل شيء برهاناً ودليلاً ، واقع خطباً طويلاً ، وبدل تصحيح جسم رياسته تعليلاً فأبى أن يسلك في هذا القول مضيقاً ، وآثر أن يقتصر على نفسه طريقاً ، ونفى أن بين الشرع والعقل محبة أرقية وسن بقوله هذا سنة أثبت على دين الإسلام سببه . ر الخ »

هذا نص المجلس الثاني من المجالس المؤيدية بمسح حذف الابتداء والانتها . وهو يدل على مقدار حذق المؤيد وقوة حجته ونهكه بخصوم مذهبه . ومن الطريف أنى قرأت في الأسبوع الماضي مقالاً للأستاذ الجليل عزيز بك خانجى يتحدث فيه عما

سمعه من المرحوم الشيخ محمد عبده في تفسير سورة « والتين والزيتون » وأضيف الآن أن المؤيد داعى الدعاة أشار إلى هذه السورة في ديوانه بقوله :

فذكروا في التين والزيتون واستكشفوا عن سره المكنون ولم أتى من ربنا به القسم كما أتى بالنون أيضاً والقلم

أما في المجالس المؤيدية فقد أول هذا القسم بنفس التفسير الذى سمعه الأستاذ خانجى من الشيخ محمد عبده . فقال المؤيد :

« وقمت السكتاية عن آدم بالتين وعن نوح بالزيتون لأن كل ثمرة يتقدمها ورق ونوار ، والتين ينشق عنه أعواد الشجر وكل حتى يسبقه جبل وولادة ، وآدم استخلصه الله من أديم الأرض من غير جبل وولادة فن أجل ذلك مثله بالتين . وخلاصة الزيتون هي الزيت المأخوذ عنه كأمه الغرض من الزيتون وكمثل ذلك . خلاصة نوح إبراهيم المستخلص من ذريته حتى كأن الغرض من نوح إبراهيم فهو مضمر في نفس القسم من الله سبحانه . أما معنى « طورسينين » فالمراد موسى عليه السلام ، وطورسينين هو موضوع مناجاته ومكان فضيلته ، وفيه إضممار وهو المسيح « وشجرة تخرج من طورسيناء تنبت للدهن وصيغ الأكلين » فالمسيح هو الشجرة الخارجة من طورسيناء النابت من منبذة ملة موسى فشرفه الله ورفعته . وهذا البلد الأمين كناية عن محمد صلى الله عليه وسلم ، هناك قبلة الله الناسخة للقبل ، بيتها أول بنيان بى على وجه الأرض ، كما قال الله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين » لآخر ساكن من أولى العزم من الرسل قال الله سبحانه وتعالى : « لا أقم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد »

فتوارد الخواطر بين المؤيد والإمام الشيخ محمد عبده في تفسير هذه السورة أوضح من أن يحتاج إلى شرح فإنى أشك في أن الإمام الشيخ محمد عبده قد اطلع على تفسير المؤيد ، فسأيره في تفسيره الذى ورد في المجالس المؤيدية التى اعتبرها من السكتوز التى تركها علماء المذهب الفاطمي ، والتى لا غنى عنها لمن يدرس تاريخ وعقائد الدولة الفاطمية .

دكتور

محمد كامل حسين

بكلية الآداب بالقاهرة

(ينبع)